(7) بيلماون

ضربَت (ميشيل) على المقود بانزعاج وهي تقود سيارتها الصغيرة وسط شوارع (الدشيرة)، المدينة القديمة بـ(أگادير)، والتفَتَت لزوجها (فريديريك) قائلة:

– لقد قلت لك لا تناديني (ميشيت).. وإلا عدت أناديك (فريدوي).

قال ضاحكًا وكأنما يسره مضايقتها:

– حسن.. حسن، لا تنزعجي.. ألا يحقّ لي مداعبتك حبيبتي؟

مطّت شفتيها وقالت وهي تعود بعينيها للطريق تحاول إيجاد ثغرة وسط الزحام:

– ولكن ليس المداعبة السخيفة.

وأردفَت بسخط وهي تضغط على بُوق السيارة:

– وهؤلاء الملاعين الجهلة متى سيتعلّمون النظام؟ لقد أقفلوا الطريق.

نظر لها (فريديريك) بدهشة، زوجته (ميشيل) عصبية نعم، لكن ما يزعجه فيها تعصّبها المفرط.

قال مبتسمًا ابتسامة خفيفة:

– رويدكِ يا عزيزتي.. أنتِ تعلمين أن اليوم عندهم عيد.

قالت ساخرة:

– عيد! ماذا قال لنا ذاك المرشد اللص؟ آه نعم.. العيد الكبير.. عيد "التضحية"، هؤلاء البدائيون!

قال (فريديريك) بانزعاج:

– توقفي عن قول ذلك.. تبدين سخيفة.

كانا قد غادرا الفندق الذي يقيمان به على خليج (أغادير) في نزهة صباحية لزيارة المدينة القديمة، سائحان شابان يزوران المغرب للمرة الأولى، استأجرا السيارة الـ(رونو) الصغيرة، وانطلقا دون مرشد يفرضُ عليهما خطّ سيرهما، يبتزهما عند كل محل بازار.

فُتِح الطريق في تلك اللحظة؛ فانطلقَت (ميشيل) وهي لا تكفّ عن السخط والاستهزاء على نحو أزعج (فريديريك) بحق، وتساءل هل لأصول زوجته اليهودية علاقة بهذا؟

وتذكّر استخفاف زوجته بعدم اصطحاب دليل سياحي ذلك اليوم؛ لأنه طلب مبلغًا كبيرًا متعللًا بعدم تفرغه لظروف العيد، اعتبرته لصًا وقرّرَت أن يقوما بالجولة وحدهما.

على الأقل كان سيقودهما عبر طرق مختصرة بالمدينة القديمة، وسيعرّفُهما أكثر على مظاهر العيد ومعانيه لدى السكان البسطاء هنا، كان يحسدهم على السعادة المتفجرة في عيونهم.

كانت (ميشيل) تسرع وهي تقول بانفعال:

– إنهم يذبحون الخراف كالهَمَج ويحتفلون بذلك.. بدائيون.

شخَص ببصره في منظر الأطفال يتسابقون في الشوارع بملابس العيد.. السعادة تشع من ملامحهم وأعينهم، وقال بشبه شرود:

– تقولين ذلك وكأنك نباتية!

ردّت بسرعة دون أن تحوّل عينيها عن الطريق أو تنقص من سرعة السيارة:

– أنا آكل اللحم صحيح.. ولكنني لا أتمتّع بذبح الحيوان وسلخِه وشوي الرؤوس، هل تتخيل هذا؟ يشوون الرؤوس.. ويأكلون الأحشاء كذلك! يا للقرف!

قال بأسف وهو يعودُ ليتفحّص وجهها وملامحها التي بدت له للحظة بغيضة:

– أنت ظالمة يا عزيزتي.

ردت بقسوة سخرية:

– وأنتَ حَمَلٌ وديع.

لفت انتباهه المستغرب الأطفال الذين يجرُون خارجين من أزقّة ضيقة شعبية، والرعب بادي على وجوه بعضهم في أشد صُورِه، دموع غزيرة يطلقها أطفال آخرون مصحوبة ببكاء يمزّق القلوب الرحيمة.

دقّ قلبه بقوة وهو يشعر بأن أمرًا جللًا على وشك أن يحصل..

وقد كان!

خرج في تلك اللحظة عبر نفس الزقاق الذي هروَلَ الأطفال منه وحش بشع، اندفع نحو السيارة كالقذيفة.

كان يجري على قدمين، أول ما طَرَق ذهن (فريديريك)، والزمن يتوقف بالنسبة له كمن تعرض لصدمة، هو أنه أمام مخلوق خرافي كال"مِي جي" أو "البيج فوت"، أو مخلوق أكثر بشاعة.

هذا لأن الوحش الذي يراه كان بطوله تقريبًا مع رأس شيطاني لخروف أقرن، وجسمه مغطًّى بصوف متّسخ تصله رائحته النتنة وهو في السيارة.

آآآآآآآآآآآآآآآه

ندّت الصرخة من حلق (ميشيل)، مخرجة زوجها من حالة الصدمة؛ فانتفض وقد وقف شعر بدنه كالإبر.

لم يملك حتى الوقت ليلتفت ناحيتها، شعر بالسيارة تهتز نحو اليسار وزوجته تدير المقود في حركة بالغة الخطورة مع السرعة التي تنطلق بها.

في جزء من الثانية تنقلبُ السيارة بعنفٍ وجسده يندفع نحو الزجاج الأمامي.

أحسّ بالموجودات حوله تتذبذب، حاول طردَ الغشاوة الثقيلة عن عينيه، سائل دافئ يهبط من جبهته ويسيل على وجهه، أحسّ بمذاق الصدأ في فمه، وألم ينتشر في كل جسمه.

آخر ما التقطَتْهُ عيناه هو مجموعة من الوحوش تخرج من السيارة، جسد زوجته مهشم الوجه.. مغطى بالدماء، صرخ بكل ما تبقَّى من قوة بحلقه، قبل أن يبسط الظلام سيطرته على وعيه.

***

دماء.. دماء في كل مكان.

عندما عاد إليه وعيه، اكتشَفَ (فريديريك) أنه مغطّى بالدماء، معلّق من قدميه بخطاف انغرس في لحم ساقيه مع آلام فظيعة فوق كُلّ تصوّر.. كان معلقًا كالذبيحة في مسلخ!

في المقابل.. كانت زوجته معلّقة في وضع مماثل، رأسها على الأرض مبتُورَة بعينين جاحظتين، بينما انهَمَكَ مجموعة من الوحوش المكسوّة بصوف الخراف في سلخ باقي الجسد.

لم يعُد (فريديريك) يأبه لآلام ساقيه بعدُ، بعدَ رؤيته لهذا العرض الجحيمي، وصرخ بمنتهى الرعب.

حتى آذى حنجرته..

***

استيقظ (فريديريك) ببطء، نظر حوله ليتأكد فعلًا بأنه نائم على سرير مستشفى نظيف، حاول تحريك رأسه، وأحسّ بأنها تزِن أطنانًا.

"ماذا حصل؟ أهو كابوس؟"، تساءل:

"أزوجته بخير؟"

حاول النهوض من السرير، لكنه انتبه فجأة للرائحة الشنيعة، تقلّصَ أنفه وهو يتذكر برعب أين شمّ مثلها؟ قبل الحادثة بقليل.

رائحة الصوف.

برعب اكتشف أن وحشًا يخرج من أسفل السرير الذي ينام فوقه؛ رأسُ خروف بقرنَيْن شيطانيَّيْن وجسم مغطّى بصوف أسود بنيّ كريه الرائحة.

تجمّد في مكانه غير مصدق أنه يعيش كابوسًا، انفتح باب الغرفة بعدّ صرخاته المتوالية الهيستيرية، فقط ليدخل وحشان آخران يتقدّمان منه بسرعة وهما يرمقانه بوحشية.

حاول القفز من السرير وهو لا يكفّ عن الصراخ الهيستيري، وقد حاصرته الوحوش، لكنه تعثّر وسقط أرضًا، دموع غزيرة تنهمر من عينيه، يحسّ أنه انتهى.

*****

تساءل د.(جون) وهو يغادر الحجرة رفقة البروفيسور (باتريك) في مصحة نفسية بـ(تولوز) الفرنسية:

– ما حكاية هذا المريض؟

أجاب (باتريك) وهو يمطّ شفتيه:

– لقد جاءنا منذ ستة أشهر بصدمة عصبية، كان في المغرب رفقة زوجته، وتعرضَا لحادثة بالسيارة، فقَدَت فيها زوجته حياتها.

– والوحوش التي يراها في هلاوسه المستمرة هاتِه؟

– يقول ملفّه أن أشخاصًا متنكرين أفزعوا زوجته عن غير قصد، كانوا يحتفلون بأحد الأعياد البدائية بالمغرب، يلبسون جلود الخراف ويطاردون الناس بالشوارع، شيء كالكرنفال يسمونه (بيلماون).

هزّ الطبيب الشاب رأسه، وكاد يقول شيئًا قبل أن يسمع صوت د.(عمر) الطبيب الأسمر في دفعته المتخرّجة حديثًا، يقول من خلفهما:

– أنت ظالم في قولِك يا بروفيسور، تتّهمُنا بالبدائية والتوحش، بينما ترون احتفالات الـ(هالويين) مثَلًا، وهي لا تختلف كثيرًا عن كرنفالات (بيلماون)، شيءٌ عاديٌّ بل ومحببّ.

التفتَ إليه (باتريك) بحرج، وتوقّفَ حتى التحق بهما الطبيب المغربي الشاب، ثم انخرطوا في حديث طويل.